الفصل الأول

القلب لماذا؟

القلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وإنما الجوارح تبع له وخدام، وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك لمملوكه، والراعي لرعيته واستخدام الإنسان للآلة. القلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غيره وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو الذي يسعد بالقرب من الله يفلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودسَّاه، وهو المطيع في الحقيقة لله، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات والأخلاق أنواره وآثاره، وبحسب ما فيه من النور والظلام تظهر محاسن الظاهر ومساويه إذ كل إناء بما فيه ينضح والقلوب كالقدور تغلي بما فيها. وإذ عرف الإنسان قلبه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه.

حقيقة القلب:

القلب لغة يطلق على أصلين أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة فالأول قلب الإنسان وغيره سمي بذلك لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه.

والأصل الآخر قلبت الثواب انقلاب الشفة، وقلبت الشيء أي: كببتُه[1].

ولفظ القلب يطلق على معنيين في الإنسان:

الأول - اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، يدخل فيه الدم ثم يدفعه بواسطة العروق لتغذية البدن.

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ١٧)، ط. دار الجيل.

الثاني - لطيفة ربانية روحانية لها بذلك القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمثاب والمعاقب[١].

القلب محل الفهم والعقل والإرادة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، «**لهم قلوب لا يفقهون بها**» أي: لا يصل إليها فقه ولا علم إلا مجرد قيام الحجة. «**ولهم أعين لا يبصرون بها**» أي: ما ينفعهم بل فقدوا منفعتها وفائدتها. «**ولهم آذان لا يسمعون بها**» أي: سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم. «أولئك» أي: الذين بهذه الأوصاف القبيحة كالأنعام أي: البهائم التي فقدت العقول. وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى فسلبوا خاصية العقل[٢]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالعقل والفهم في القلب وليس في الدماغ هذا هو الصحيح. نعم هناك ارتباط بينهما لكن الذي دل عليه ظاهر القرآن الكريم أن العقل في القلب ومما يدل على ذلك أن القلب هو موضع التمييز والاختيار أن الله تعالى ذكر استحقاق الجزاء على كسب القلوب. قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، كما أن الله عَزَّوَجَلَّ ألزم الحجة على وسائل الإدراك وهي السمع والبصر والفؤاد. قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ومن المعلوم أن السمع

---

(١) «الإحياء» للغزالي (٣/ ٤، ٥) ط. دار المنار.

(٢) «تفسير السعدي» [٣٤٠]، ط. دار ابن الجوزي.

والبصر لا يستفاد منهما إلا بما يؤديانه إلى الفؤاد، والفؤاد باطن القلب ولبُّه فكأن السؤال عنهما في الحقيقة سؤال عن القلب[١].

لقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ كل عضو لحكمة فاليد للبطش، والرجل للسعي، واللسان للنطق، وسيد هذه الأعضاء ورأسها وملكها هو القلب، والفكر للقلب كالإصغاء للأذن وصلاح القلب وحقه الذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء. وكون العقل في القلب هو قول جمهور العلماء وانظر في ذلك قول ابن تيمية وابن كثير وابن حجر رحمة الله على الجميع[٢].

أهمية القلب وأعماله

إن صلاح القلب من المطالب الرئيسة والمقاصد المهمة ولا يصلح حال امرئ إلا بصلاح قلبه، ومن أهم الواجبات وأعظم القربات إصلاح هذا القلب فإن في صلاحه صلاحًا لكل شيء وللقلب القدر الأكبر والقيمة الأعلى والمكانة العظمى في جسد هذا الإنسان، ولإبراز أهمية القلب ولبيان قدر أعمال القلوب نذكر ما يلي:

أولًا - القلب أصل الصلاح والفساد:

الصلاح صلاح القلب والفساد فساد القلب، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٣]، ومما يدل على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب؛ وأنه إذا بَرَّ القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، دليل ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل**

---

(١) «القلب ووظائفه» لسليمان اليماني ص [٤٢٣] ط. دار ابن القيم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٠٨)، «فتح الباري» (١/ ٢١١).

(٣) رواه البخاري برقم [٥٢]، ومسلم برقم [١٥٩٩].

واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[(١)].

إذا زاغ القلب زاغت الجوارح وإذا انصرف عن الحق انصرفت الجوارح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

ثانيًا - القلب محل التقلب والثبات:

سمي القلب قلبًا لتقلبه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض يقيمها الريح ظهرًا لبطن**»[(٢)]. ومن خطورة الفتن أنها تعرض على القلوب فإذا كان في القلب رصيد من الإيمان صد الفتنة وأنكرها فازداد بذلك نورًا وجلاء وإشراقًا وبياضًا وبهاء، وإذا كان القلب ضعيف الإيمان متلوثًا بالشهوات فإن الفتنة تعصف به وتحدث له انتكاسًا ونكوصًا وانحرافًا وتيهًا. ففي صحيح مسلم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها نكتت في قلبه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**»[(٣)].

ثالثًا - عبودية القلب أساس عبودية الجوارح:

القلب هو المسيطر والمهيمن على جميع الجوارح فإذا أشرق فيه نور الطاعة انبعث ذلك النور على الجوارح، وظهرت صورة ذلكم النور والطهر في قسمات الوجه وخشوع

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٥٧٧].

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤١٩)، وابن ماجه [٨٨]، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» [٧١].

(٣) رواه مسلم برقم [١٤٤].

البصر وطيب الخلق. قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده**»(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملة ومتممة، والنية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فمواتها وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح إذ هي أصلها وأعمال الجوارح متفرعة عنها(٢) كذا يقول: من تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم فهي واجبة في كل وقت(٣).

رابعًا - أعمال القلوب هي أصل الدين:

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن أعمال القلوب: هي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع ذلك: هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق -المأمورين في الأصل- باتفاق أئمة الدين والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات: فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور، والمقتصد: المؤدي الواجبات والتارك المحرمات، والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه، وإن كان كلٌّ من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه إما بتوبة -والله يحب التوابين ويحب المتطهرين- وإما بحسنات ماحية وإما بمصائب مكفرة وإما

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٧٩)، العبيكان.

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٢٤).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٠).

بغير ذلك، وكل من الصنفين: المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فحدُّ أولياء الله هم المؤمنون المتقون[١]، ومن ذلك يتبين أن عمل القلب واجب في كل وقت على جميع المكلفين فإذا زال عمل القلب زال الإيمان عياذًا بالله.

خامسًا- أعمال القلوب سبيل الجنة ونجاة من النار:

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال جل ذكره وتقدست أسماؤه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣١-٣٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فسقته إياه فغفر لها به**»[٢].

وفيهما عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له**»[٣]، وإنما غفر لهذه البغي لما قام بقلبها من رحمة عظيمة لهذا الحيوان البهيم وكذلك غفر لهذا الرجل في الحديث الثاني لما قام بقلبه من رحمة وشفقة للمسلمين ونصح لهم، وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذرة من كِبْر ينطوي عليها القلب تمنع صاحبها دخول الجنة فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٧٣) ط. العبيكان.

(٢) رواه البخاري برقم [٣٤٦٧]، ومسلم برقم [٢٢٤٥].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٤٧٢]، ومسلم برقم [١٩١٤].

(٤) رواه مسلم برقم [٩١].

وبين النبي ﷺ أن من حرص بقلبه على قتل مسلم وعزم قلبه على ذلك فإن هذا العمل القلبي سبب لدخوله النار والعياذ بالله، كما في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[(١)].

سادسًا- يتفاوت الناس في قربهم من ربهم بتفاوت أعمال قلوبهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، تأمل كيف قال ربنا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أيكم أكثر عملًا فليس المقصود الكثرة، وإنما المراد ما يكون في القلب ويقوم به من إيمان وإقبال على الله عز وجل في ذلك العمل، فالأعمال لا تتفاضل بصورها ولا بعددها وإنما بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال فقد تكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض وتأمل ما رواه مسلم في صحيحه عن عقبة ابن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة**»[(٢)]، وفي حديث عمرو ابن عبسة بعد ذكر فضل الوضوء وثوابه قال النبي ﷺ: «**فإن هو قام فصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجّده بالذي هو له أهلٌ وفرَّغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٣١]، ومسلم برقم [٢٨٨٨].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٣٤].

(٣) رواه مسلم برقم [٨٣٢].

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسبقه للصحابة: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيءٍ وقر في قلبه.

قال ابن القيم قبل إيراده لذلك الأثر عن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنه أفضل الأمة ومعلوم من هو أكثر عملًا وحجًا وصومًا وصلاة وقراءة منه.

قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيءٍ وقر في قلبه، وهذا موضع المثل المشهور:

من لي بمثل سيرك المدلَّل تمشي رويدًا وتجي في الأول[1]

وقال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض وذلك أن أحدهما مقبل على الله عَزَّوَجَلَّ والآخر ساه غافل[2].

سابعًا- عقوبة القلب أشد وأعظم من عقوبة البدن:

من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم لا يرى الحق ولا يسمعه ولا ينطق به، والعمى التام في الحقيقة عمى القلب، ومن هذه العقوبات الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالًا حول السفليات والقاذورات والرذائل كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالًا حول العرش قال بعض السلف: إن هذه القلوب جوالة فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحش ومن تلك العقوبات مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣١) ط. التوفيقية.

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» ص [٣٦] ط. الريان.

والغي بالحمر تارة وبالكلب تارة وبالأنعام تارة وتقوى هذه المشابهة باطنًا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورًا خفيًا يراه المتفرسون وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام فيقلب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصورة الظاهرة على صورة الحيوان كما فعل باليهود والنصارى وأشباههم ويفعل، قوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير، فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر!! وقلب ممسوخ وقلب مخسوف به، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ومغرور بستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه! وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها كرامة.

ومن تلك العقوبات مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع وإزاغته القلب الزائغ عن الحق ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقًا والحق باطلًا والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه، وكل هذا من العقوبات الجارية على القلب، ومنها حجاب القلب عن الرب والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٥]، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته وتقر به عينًا وتطيب به نفسًا بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم وحجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم.

ومنها الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على الأبصار والإقفال على القلوب وجعل الأكنة عليها والرين عليها والطبع وتقليب الأفئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه وإغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء الإنسان نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق وزيادتها

مرضًا إلى مرضها وإركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ومنها التثبيط عن الطاعة والإقعاد عنها[١].

ثامنًا- القلب محل العبادات التي فيها سعادة العبد وفلاحه:

إذا اطمأن القلب اطمأنت الجوارح، وإذا سعد القلب سعدت الجوارح كلها وسبيل السعادة الأوحد هو إصلاح هذه القلوب بالعبودية لله جَلَّجَلَالُهُ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته، وصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا[٢]، كل من امتلأ قلبه بتوحيد الله وإخلاص العبادة له أحبه ولابد، فالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والخشوع والخضوع وغير ذلك من العبادات محلها القلب إذا نجح العبد في إثارتها وزيادتها وحافظ على حرارتها في قلبه وجد -والله- سعادة الدنيا والآخرة واستشعر لذة الحياة واستطاب كل ما يلقاه فيها كيف لا وهو إما أن يكون في نعمة فيلهج قلبه ولسانه بالشكر أو يكون في بلاء فيتحلى بالرضا بقضاء الله وبالصبر، فهو في كل الأحوال مأجور مثاب، وما يلقاها إلا أولو الألباب، فهيا هيئ نفسك على التعبُّد لله جَلَّجَلَالُهُ في كل موطن من مواطن الحياة بالعبودية التي تلائمه، وليكن قلبك دائم التعلق بربك مشغولًا بذكره جَلَّجَلَالُهُ وأعظم وأجل وأهم وأكبر وأوجب ما يجب أن يوجد في القلب ليصلح ويفلح هو توحيد الله، فالتوحيد قبل كل شيء قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم: أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه استقامت الجوارح كلها على طاعته فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده فإذا

(١) «الداء والدواء» بتصرف واختصار [١٦٨-١٧٠] ط. دار ابن رجب.

(٢) «روضة المحبين» [١٨٠].

استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه[١]، يقول ابن القيم: وإذا استنار القلب أقبلت إليه وفود الخير من كل ناحية كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدع وضلالة، واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام[٢].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده وهو معبوده وغاية مطلوبه وأحب إليه من كل ما سواه، فالله هو المعبود المحبوب المراد وهو المعين لعبده وصوله إليه وعبادته له، والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته وهو المعين لعبده على دفعه عنه كما قال أعرف الخلق به: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[٣]، وقال: «**أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»[٤]، فمنه المنجا وإليه الملجأ وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته، فالأمر كله له، والحمد كله له والخير كله في يديه لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناء عليه؛ بل كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه[٥].

تاسعًا- غرض الشيطان وهدفه الأكبر إفساد القلب:

لما علم الشيطان الرجيم أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد أقبل عليه بجنوده وألقى عليه شباك الشهوات والشبهات وأغرقه في الوساوس والهواجس وزيَّن له السوء

(١) «جامع العلوم والحكم» ص [٣٦٥] ط. دار ابن رجب.
(٢) «الداء والدواء» ص [٢٥٤].
(٣) رواه مسلم برقم [١٠٧١].
(٤) رواه البخاري، و مسلم.
(٥) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» بتصرف [٣٣-٣٤].

حتى يفسده ويغير وجهته ويخبثه بالرذائل، ويشغله عن الله بترهات الدنيا وسفاهاتها، وهذه الحرب التي يشنها الشيطان على القلب لن تنتهي ما دامت في القلب حياة ولن تهدأ إلا إذا أظلم القلب واسود بالكفر والضلال، ولذلك حذرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ من اتباع خطوات الشيطان تلك التي يستدرج بها النفوس ويستميل بها القلوب حتى تتورط في الذنوب المهلكة والآثام الموبقة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، وإنما يشتد طمع الشيطان في تلك القلوب التي فيها مواد للفساد، أما إذا لم يجد في القلب تلك الملوثات انقطع طمعه وخف عن القلب شره يقول ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع لم يندفع عنك بمجرد الكلام فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يدفع الذكر إلى حواشيه فلا يتمكن الذكر من سويدائه فيستقر الشيطان في السويداء، وإذا أردت مصداق ذلك فتأمل هذا في صلاتك وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في هذه المواطن بذكر السوق وحساب المعاملين وتدبير أمر الدنيا[1]، واعلم أن من أهم ما يدفع وسوسة الشيطان وكيده ويبطل مكره كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وحضور القلب في العبادات ولهذا سمى الله تعالى الشيطان [**الوسواس الخناس**] لأنه إذا ذكر الله خنس وإذا وقعت الغفلة انبسط وأجلب بخيله ورجله خلال القلب ولا يطرد جند الشيطان من القلب إلا هذا الذكر فإنه لا قرار له مع الذكر، فالمشغول لا يُشْغل ولا يجتمع ذكر الله الذي هو مصدر النور فيه مع ذكر الشيطان ووساوسه التي هي سبب ظلمته.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص [١٥٣].

أقسام القلوب

قلوب العباد تنقسم إلى أنواع ثلاثة: أولها قلب صحيح سليم، والثاني قلب مريض، والثالث قلب ميت وهاك بيان لهذه الأنواع الثلاثة وإبراز لأمارات كل منها لكي يبحث كل منا في نفسه ويفتش عن حال قلبه، فإن كان القلب صحيحًا فليحمد الله وليسأل الله الثبات، وإن كان مريضًا فليبادر إلى علاجه قبل أن يفوت الأوان فيموت القلب ويقسو، وأما إن كان القلب ميتًا -ولا أخَال ذلك يكون في مسلم- فليبك طيلة حياته فقد حلت به أعظم مصيبة وأكبر فاجعة وليلجأ إلى من يبعث من في القبور لعل الله يحيي قلبه فالله على كل شيء قدير.

أولًا - القلب الصحيح[1]:

وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، والسليم هو السالم الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك أنه القلب الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والذل له وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد عن سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلًا وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاء وخلص عمله لله، فإن

(١) بتصرف واختصار من «إغاثة اللهفان» ص [١٥] وما بعدها.

أحب أحب في الله وإن أبغض أبغض في الله وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول وعمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، أي: لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لم، وكيف؟ أي: لم فعلت وكيف فعلت، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وابتغاء الوسيلة إليه.

والثاني- سؤال عن متابعة الرسول في هذا التعبد أي: هل كل هذا العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

ثانيًا- القلب الميت:

هو القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربَّه ولا يتحرى ما أمر به وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربُّه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبًا وخوفًا ورجاءً ورضاً وسخطًا

وتعظيمًا وذلًا، إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه وإن أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده، والجهل سائقه والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سُم ومجالسته هلاك.

ثالثًا- القلب المريض:

والقلب الثالث قلب له حياة وبه علة فله مادتان، تمده هذه مرة وهذه أخرى وهو لما غلب عليه منهما، فيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والكبر والعجب وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة وهو إنما يجيب أقربهما إليه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول: حي مخبت لين واعٍ، والثاني: يابس ميت، والثالث: مريض فإما إلى السلامة أدنى وإما إلى العطب أدنى، وقد جمع الله بين هذه القلوب الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج: ٥٢-٥٤]، فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القلوب في هذه الآيات ثلاثة:

قلبين مفتونين وقلبًا ناجيًا، فالمفتونان القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي، والناجي القلب المؤمن المخبت إلى ربه وهو المطمئن إليه الخاضع له المستلم المنقاد.

وفي «**الوابل الصيب**» يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ القلوب ثلاثة:

القلب الأول: قلب خال من الإيمان، وجميع الخير فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا وموطنًا وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهواء فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان وانقشعت عنه حجب الشهوات وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به؛ فهو كالسماء التي حرست بالنجوم لو دنا منها الشيطان يتخطاها رُجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئًا إلا خطفه، وقد مثل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره، وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق؟ فإن قلت من البيت الخالي كان محالًا لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن اليهود تزعم أنها لا تُوسوس في صلاتها فقال: وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟ وإن قلت: يسرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع فإن عليه من الحرس وما

لا يستطيع اللص الدنو منه كيف وحارسه الملك بنفسه؟! وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذي يشن عليه الغارات[١].

علامات مرض القلب وصحته

قد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك:

١- أنه لا تؤلمه جراحات القبائح:

ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى وذلك أصعب شيء على النفس وليس لها أنفع منه.

٢- عدوله عن الأغذية النافعة إلى الضارة:

وعدوله عن الدواء النافع إلى دائه الضار؛ فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، وأنفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته:

١- أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[٢]، وكلما صحَّ القلب من

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» ص [٤٠-٤١].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٤١٦].

مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها.

٢- ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، فيستغني بحبه عن حب ما سواه وبذكره عن ذكر ما سواه وبخدمته عن خدمة ما سواه.

٣- ومن علامات صحة القلب ألا يفتر عن ذكر ربه ولا يسأم من خدمته ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه، ويذكره به ويذاكره بهذا الأمر.

٤- ومن علامات صحته: أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

٥- ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة[1]، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

٦- ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا واشتد عليه خروجه منها ووجد فيها راحته ونعيمه وقرة عينه وسرور قلبه.

٧- ومن علامات صحته: أن يكون همه واحدًا وأن يكون في الله.

٨- ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًّا بماله.

---

(١) الخدمة أي: العبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

٩- ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه وتقصيره في حق الله.

وبالجملة فالقلب الصحيح هو الذي همه كله في الله وحبه كله له، وقصده له وبدنه له وأعماله له، ونومه له ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم حول مراضيه ومحابه، الخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله، فكلما عرض له أمر من أمر ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق: لبيك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليَّ المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك، وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهديت، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شرًا صرف عني، فكل ما به من السراء والضراء اهتدى به طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، فلله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أودعته من الكنوز والذخائر ولله طيب أسرارها ولاسيما يوم تبلى السرائر[1].

(١) بتصرف واختصار من «إغاثة اللهفان» ص [٧٥-٨١] ط. مكتبة الإيمان.

أي أخي، هذه هي أقسام القلوب فأي القلوب قلبك؟ هل أنت صاحب قلب حي صحيح سليم، أم أن قلبك مريض أم ميت؟ فتش عن حالك بنفسك، وتدارك أمرك، وبادر بمعالجة قلبك، واثبت على الحق والطاعة، وغذ القلب بالإيمان، ومتعه في الدنيا بمحبة الرحمن، واجعل بيئته بيئة يزداد فيها الإيمان، جالس الصالحين، وأدم تلاوة القرآن وأكثر من الذكر، واجعل حياتك كل حياتك طاعة وعبودية لربك الذي فطرك وسواك وإليه مرجعك ومصيرك، فانظر بم تقدم يوم القيامة على ربك، وهيئ زادًا صالحًا ينفعك في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يارب خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا وتب علينا واغفر لنا.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com